المنهج التكاملي

يقصد بعبارة المنهج التكاملي تلك المحاولة التي سعت للاستفادة من كل المناهج التي أفرزتها الحداثة الأوروبية ، و انتقلت إلى الوطن العربي ، و التركيب بين إجراءاتها. و تهدف المحاولة إلى تجاوز القصور الذي عانى منه كل منهج ، و التوليف بين ما عُد فعّالا في كل منهج من أجل دراسة شاملة للأعمال الأدبية لا تغفل جانب من جوانب النص والمحاولة التكاملية هذه لا تتعلق فقط بالمناهج السياقية فيما بينها، بل بالمناهج النسقية أيضا فيما بينها و فيما بينها و بين السياقية كما فعل لوسيان غولدمان الذي أعاد النظر في مقاربة النصوص فأسس لمنظور منهجي مختلف في وقته إذ عدّ النص بنية دالة أي بنية شاملة لها بنيات صغرى و كبرى (العناصر الصوتية ، التركيبية ، الدلالية ، السيميولوجية ...) و يشكل هذا عملية الفهم La compréhension و استخلاص رؤية العالم .

و بعد هذا يفسر غولدمان الرؤيا خارجيا و هو ما يسميه بالتفسير .Explication و يتم ذلك بالتركيز على العوامل التاريخية و السياسية و الثقافية و النفسية.()

لقد عيب على المناهج النقدية نظرتها الجزئية إلى النصوص ، فراح بعض النقاد يشتغل على تدارك قضية الجزئية هذه باقتراح منهج ، يأخذ من كل المناهج و يجعلها تكمل بعضها البعض. " يأخذ من كل منهج ما يراه معينا على لإصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع جوانبها"() على حد ما ذهب إليه عبد العزيز عتيق.

و قد تعددت المصطلحات المعبرة عن هذا المنهج ، فقد "أطلق عليه آخرون تسميات أخرى منها النقد المتعدد أو المتكثر ، و النقد الكلي ، و النقد الحواري " () كما يقول نعيم اليافي الذي انشغل بالتنظير لهذا المنهج و آثر مصطلح "التكاملي" على باقي المصطلحات " رغم ما توحي به هذه الكلمة من ظلال دلالات ربما أساءت إليه ، و لعل أخطر هذه

الظلال أنه جماع مناهج مختلفة أو ملفق لها أو أفضلها أو بديل عنها مفردة و مجموعة وليس واحدا منها . و مع هذه الظلال رأيت أن تأطير الشائع بتحديد سماته خير من اقتراح آخر جديد قد يحدث بلبلة نحن في غنى عنها الآن ، و الوقت وقت تأسيس لهذا المنهج و تمكين ، و دعوة إليه صارخة أيضا"().

لقد دعا إلى المنهج التكاملي في النقد الغربي "ستانلي هايمن " في كتابه "النقد الأدبي و مدارسه الحديثة " حيث تحدث عن إمكانية قيام منهج يستضيء من نور المناهج السائدة ، مستعيرا منها وسائلها و موفقا فيما بين إجراءاتها ، يقول:" لو كان في مقدورنا ، و هذا مجرد افتراض ، أن نصنع ناقدا حديثا مثاليا لما كانت طريقته إلا تركيبا لكل الطرق و الأساليب العلمية التي استغلها رفاقه الأحياء، و إذا لاستعار من جميع تلك الوسائل المتضاربة المتنافسة ، و ركب منها خلقا سويا لا تشويه فيه...و إذن لأخذ من إدموند ولسن مهمة التفسير أو التوضيح لمحتوى الأثر الفني ، و أضاف إلى ذلك الاهتمام بالقيم الشعرية و الشكلية التي قد يجدها في بعض النقد التفسيري عند عزرا بوند ، و استعار من إيفور ونترز الاهتمام بالتقويم و الحكم المقارن ...و أفاد من موقف إليوت الذي يجمع بين الشعر و النقد في يده ...فإذا أخذ ناقدنا المثالي كل ذلك طرح في الوقت نفسه كل تافه محدود غير ملائم من أعمال أولئك النقاد و استصفى النواحي الموضوعية لديهم بعد أن ينزع عنها ما يحيطها من مظاهر ضعفهم"() و ما يمكن ملاحظته هنا أن مبدأ ستانلي هايمن في التكاملية يقوم على الانتقاء ، انتقاء الإجراءات الجيدة عند مختلف النقاد ، و طرح الضعيف منها غير المجدي، و بهذا الصنيع نصل إلى النقد الفعال و يتجسد الناقد المثالي الذي يحقق دوره في القراءة الشاملة للنصوص.

و بالعودة إلى النقد العربي ، فقد بدأت بوادر ظهور المنهج التكاملي في الأربعينيات من القرن الماضي ، و بالضبط مع سيد قطب في كتابه " النقد الأدبي" الذي صدر عام 1946 ، حيث خصص فصلا من الكتاب للحديث عن هذا المنهج و سماه آنذاك "بمنهج

التكامل" وهو منهج "يتعامل مع العمل الأدبي ذاته، غير مغفل علاقته بنفس قائله، ولا تأثرات قائله بالبيئة، ولكنه يحتفظ للعمل الفني بقيمه الفنية المطلقة، غير مقيدة بدوافع البيئة وحاجاتها المحلية، ويحتفظ لصاحبه بشخصيته الفردية، غير ضائعة في غمار الجماعة والظروف، ويحتفظ للمؤثرات العامة بأثرها في التوجيه والتلوين، لا في خلق الموهبة ولا في طبيعة إحساسها بالحياة" () و يخلص سيد قطب بعد التعريف بالمنهج التكاملي إلى القيمة الأساسية له "وهي أنه يتناول العمل الأدبي من جميع زواياه؛ ويتناول صاحبه كذلك، بجانب تناوله للبيئة والتاريخ، وأنه لا يغفل القيم الفنية الخاصة، ولا يغرقها في غمار البحوث التاريخية أو الدراسات النفسية، وأنه يجعلنا نعيش في جو الأدب الخاص، دون أن ننسى مع هذا انه أحد مظاهر النشاط النفسي، وأحد مظاهر المجتمع التاريخية– إلى حد كبير أو صغير"() و بعد سيد قطب تبنى المنهج التكاملي عدد من النقاد العرب ، نذكر منهم عبد القادر القط ، و أحمد كمال زكي ، وشوقي ضيف الذي يعد التكامل أمرا ضروريا تابعا لطبيعة النصوص الأدبية نفسها فهي تنطوي على أبعاد جمالية و إيديولوجية و اجتماعية و نفسانية مما يفرض على الباحث الأدبي "أن يستضيء في عمله بكل المناهج و الدراسات السابقة ، إذ لا يكفي منهج واحد و لا دراسة واحدة لكي ينهض بعمله على الوجه الأكمل ، بل لابد أن يستعين بها جميعا "() و لعل الملاحظ على هؤلاء النقاد التفاوت الكبير في فهم فكرة "التكامل" و تطبيقها ، فسيد قطب مثلا يقول بتناول النص من جميع زواياه ، في حين يلجأ نقاد آخرون إلى الانتقاء والتركيب.

و يعد نعيم اليافي من أكبر النقاد العرب تحمسا للمنهج التكاملي و تأطيرا له ، بدءا من التعريف به إلى العناية بمزاياه ، و وصولا إلى التنظير لإجراءاته . يقول :" إن المنهج التكاملي وجهان لعملة واحدة ، وجه التعددية ، و وجه الحوارية ، و هذان الوجهان متداخلان متشابكان ، فأنت لا يمكن أن تعيش التعددية إلا إذا توسلت بالحوار ، و لا يمكن أن يتم لك الحوار إلا إذا كان ثمة تعددية ، و ما التكاملية إلا لقاء و تفاعل بين اتجاهات شتى ، كل

منها يحرث في حقله ، و تريد أن تبحث عن نواظم عامة مشتركة" () فإذا كانت المجتمعات المعاصرة مشغولة –ثقافيا– بالتنظير للحوار و الديمقراطية و التعددية الثقافية و اللقاء عبر الاختلاف فمن الطبيعي أن ينعكس ذلك على النقد الأدبي ، بوصفه حقلا من حقول المعرفة و جزءا من النظام الثقافي. و يذهب نعيم اليافي إلى أن لهذا المنهج خمسة مفاتيح هي " الموسوعية و الانتقائية و الانفتاحية و التركيبية و النصية "() فالناقد بالضرورة ينبغي أن يكون متسلحا بثقافة موسوعية تخص جميع الحقول المعرفية ، و أن يكون في الوقت نفسه عارفا بكل المناهج النقدية و تاريخ الآداب ، وأن يكون مجيدا لانتقاء ما يناسب النصوص من إجراءات عبر منهجية ، فضلا عن وعيه الكامل بالمكونات البنية و النصية التي تشكل عماد النص الأدبي.

في الأخير يمكن القول إن المنهج التكاملي شأنه شأن باقي المناهج لقي اللوم والانتقاد ، و تراكمت في هذا السياق توصيفات المتحفظين منه ، فهو منهج من لا منهج له، و هو منهج اللامنهج ، و هو المنهج "التلفيقي" بدل "التوفيقي" . فإذا كان المنهج النقدي "الحقيقي" هو "مجموعة متناسقة من الخطوات الإجرائية المناسبة لدراسة الموضوع تعتمد على أسس نظرية متلائمة و غير متناقضة معها أي أن التناسب و التناسق لا بد أن يتم بين جوانب ثلاثة :الأصول النظرية للمنهج ، و أدواته الإجرائية ، و الموضوع المدروس"(9) فإن ما سمي بالمنهج التكاملي يفتقر إلى التناسق و هو يأخذ من شعاب متناقضة بجمعه بين إجراءات مناهج مختلفة الأصول و الفلسفات حد التناقض أحيانا. و الواقع أن التكامل الذي رفض في وقت ما بهذه الحجج ، وجد له حيزا واسعا في اشتغال النقاد المعاصرين فيما بعد، و خاصة بعد انهيار النموذج البنيوي و انفتاح النقد مجددا على الثقافة و التاريخ ، حيث تجاوز التفكير النقدي مسالة البنية "الصماء" للنص إلى البنية "الطبقية" الكثيفة التي

يستدعي تفكيكها ثقافة موسوعية و حسا إبداعيا لدى الناقد بوصف هذا الأخير مجموعة نصوص عابرة للعلوم و المعارف.